

المحاضرة الخامسة: القصص في الأدب العربي القديم

1. القصص والقصص في اللغة والاصطلاح:

تعددت معاني القص والقصص في معاجم اللغة العربية، فمن بين أهم تلك المعاني نذكر:

قصّ أثره قصّاً وقصصاً: تتبعه. وقص الخبر: أعلمه به. ومن هذا قوله تعالى: "فارتدّا على آثارهما قصصاً" [الكهف/64]: أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصّان الأثر. وقوله تعالى: "وقالت لأخته قصّيه فبصرت به عن جنبٍ وهم لا يشعرون" [القصص/11]. وقوله تعالى: "ونحن نقصّ عليك أحسن القصص" [يوسف/3]، أي نبين لك أحسن البيان.

وأما القصّ في الاصطلاح والاستعمال، فهو فن مخاطبة العامة ووعظهم بالاعتماد على القصة، ويقوم مفهوم القصة في التراث على نقل الخبر المتميز أو السيرة، حيث يختلط مفهومها مع الخبر المروي الذي يصور حادثة وقعت أو زيد فيها فجاءت على صورة جديدة يختلط فيها الواقع بالخيال، كما يمكن أن تكون القصة بالكامل من وحي الخيال. ولم يكن واضح القصة كاتباً محترفاً يسير في قصصه وفق أصول فنية متبعة، بل كان في الأغلب راوياً.

2. القصص في الأدب العربي القديم:

هناك من زعم من المستشرقين وبعض من أخذ برأيهم من الباحثين العرب، أن العرب، بسبب بيئتهم الصحراوية المجربة، لم يعرفوا القصص إذ ينقصهم الخيال المبتكر، والعقل المبدع الخلاق، وفي مقابل هذا نجد من يثبت وجود القصة في التراث العربي ويجعلها أنواعاً عدّة، بل ويثبت لها فضلاً على الآداب الأوروبية.

والذين ينكرون أن يكون العرب قد عرفوا القصة يهملون تراثاً ضخماً من الحكايات التي سجلت الوقائع الحربية بين القبائل العربية، ومثلها أحاديث الهوى وأخبار العشاق، والحكايات عن نشأة الكون وأخبار الإنسان عبر الزمان.

ثم إن ورود القصص في القرآن الكريم يشير إلى أن هذا اللون من ألوان التعبير كان معروفاً ومقبولاً لدى العرب منذ العصر الجاهلي، وفي السيرة النبوية خبر النضر بن الحارث¹ الذي كان من أعداء الإسلام، وقد أراد أن يصرف الناس عن

¹ - النضر بن الحارث: وكنيته أبو فائد، وهو والد الصحابي المهاجر النضير بن النضر بن الحارث العبدي، وسيد من أسياد قبيلة قريش، وكان أحد أعق وأشرس أعداء النبي محمد ولدين الإسلام، فعندما كان رسول الله ﷺ يجلس في مجلس، فيذكر الله ويرغب في جنته ويحدث قومه بما أصاب الأمم من قبلهم من نقمة الله وبرهيمهم من ناره، يجلس بن الحارث بعده في مجلسه ويحكي رواياته ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلما حتى أحدثكم، فيبدأ ويحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: ما محمد أحسن حديثاً مني وما حديث محمد إلا أساطير الأولين، اكتبتها كما اكتبها محمد.

وقال ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أنزل الله في النضر ثمان آيات منها قول الله تعالى: "إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"، وقوله تعالى: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا".

وقد قطع النضر بن الحارث أكثر من أربع مائة وألف كيلومتر حيث الحيرة في العراق، التي كانت تحت الاحتلال الفارسي، وتعلم فيها فنّاً جديداً حيث يستطيع أن يلهمي به شعب مكة فبذل الجهد والوقت والمال حتى يصد عن سبيل الله وينشر الإباحية والمجون، فقد قال تعالى عنه: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ".

كان النظر بن الحارث صاحب لواء المشركين في غزوة بدر وكان أحد الذين أطعموا الجيش، أسر الصحابي المقداد بن الأسود، وفي طريق العودة للمدينة المنورة مرض النضر بن الحارث بالصفراء وقتله علي بن أبي طالب صبراً.

القرآن الكريم، بذكر قصص كان يروها عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار. كما نجد في سيرة ابن هشام قدرا كبيرا من القصص التي قد يكون لها أصل واقعي ولكن دخلها الخيال فصاغها صياغة جديدة¹، ومنها قصة سد مأرب وسير بعض ملوك اليمن وقصة أصحاب الأخدود.

¹ - ومن الأمثلة الكثيرة الواردة في هذه السيرة نذكر حديث ابن هشام عن سد مأرب:

قصة سد مأرب: وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ مِنَ الْيَمَنِ - فِيمَا حَدَّثَنِي أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ - أَنَّهُ رَأَى جُرَدًا يَحْفِرُ فِي سَدِّ مَأْرِبٍ سَدِّ مَأْرِبٍ ، الَّذِي كَانَ يَحْبِسُ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ - فَيَصْرِفُونَهُ حَيْثُ شَاءُوا مِنْ أَرْضِهِمْ فَلَعَلِمَ أَنَّهُ لَا بَقَاءَ لِلسَّدِّ عَلَى ذَلِكَ فَأَعْتَزَمَ عَلَى النِّقْلَةِ مِنَ الْيَمَنِ ، فَكَادَ قَوْمُهُ فَأَمَرَ أَصْغَرَ وَلَدِهِ إِذَا أَعْلَظَ لَهُ وَلَطَمَهُ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِ فَيَلْطِمَهُ فَفَعَلَ ابْنُهُ مَا أَمَرَهُ بِهِ فَقَالَ عَمْرُو : لَا أَقِيمُ بِبَلَدٍ لَطَمَ وَجْهِي فِيهِ أَصْغَرُ وَلَدِي ، وَعَرَضَ أَمْوَالَهُ . فَقَالَ أَشْرَافُ مِنَ أَشْرَافِ الْيَمَنِ : اغْتَنِمُوا غَضَبَةَ عَمْرٍو ، فَاشْتَرَوْا مِنْهُ أَمْوَالَهُ . وَانْتَقَلَ فِي وَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ . وَقَالَتْ الْأَزْدُ : لَا نَتَخَلَّفُ عَنْ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ ، فَبَاعُوا أَمْوَالَهُمْ وَخَرَجُوا مَعَهُ فَسَارُوا حَتَّى نَزَلُوا بِلَادَ عَكٍّ مُجْتَازِينَ يَرْتَادُونَ الْبُلْدَانَ فَحَارَبَتْهُمْ عَكٌّ ، فَكَانَتْ حَرْبُهُمْ سِجَالًا . فَفِي ذَلِكَ قَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ الْبَيْتَ الَّذِي كَتَبْنَا . ثُمَّ ارْتَحَلُوا عَنْهُمْ فَتَفَرَّقُوا فِي الْبُلْدَانِ فَانْزَلَ آلُ جَفْنَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ الشَّامَ ، وَنَزَلَتْ الْأَوْسُ وَالْحَزْرَجُ يَثْرِبَ ، وَنَزَلَتْ خَزَاعَةُ مَرَا ، وَنَزَلَتْ أَزْدُ السَّرَاةِ ، وَنَزَلَتْ أَزْدُ عَمَّانَ عُمَانَ . ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى السَّدِّ السَّيْلَ فَهَدَمَهُ فَبِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ السَّيْلَ الْغَمِيمَ } .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَكَانَ رَبِيعَةُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مَلِكِ الْيَمَنِ بَيْنَ أَضْعَافِ مُلُوكِ التَّبَاعَةِ فَرَأَى رُؤْيَا هَالَتْهُ وَقَطَعَ بِهَا فَلَمْ يَدْعُ كَاهِنًا ، وَلَا سَاحِرًا ، وَلَا عَاقِفًا وَلَا مُتَجَمًّا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ إِلَّا جَمَعَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي ، وَقَطَعْتُ بِهَا ، فَأَخْبِرُونِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا ، قَالُوا لَهُ أَقْصَصْهَا عَلَيْنَا نُخْبِرْكَ بِتَأْوِيلِهَا ، قَالَ إِنِّي إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ بِهَا لَمْ أَطْمَئِنِّ إِلَى خَبَرِكُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا قَبْلَ أَنْ أَخْبِرَهُ بِهَا . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ هَذَا فَلْيَبْعَثْ إِلَى سَطِيحٍ وَشِقِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْهُمَا ، فَهُمَا يُخْبِرَانِهِ بِمَا سَأَلَ عَنْهُ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَبَعَثَ إِلَيْهِمَا ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ سَطِيحٌ قَبْلَ شِقِّ فَقَالَ لَهُ إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي وَقَطَعْتُ بِهَا ، فَأَخْبِرْنِي بِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ أَصَبْتَ أَصَبْتَ تَأْوِيلَهَا . قَالَ أَفَعَلُ رَأَيْتَ حُمَمَهُ خَرَجَتْ مِنْ ظُلْمِهِ ، فَوَقَعَتْ بِأَرْضِ تَهَمِهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ جُمُجُمَةٍ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا أَخْطَأَتْ مِنْهَا شَيْئًا يَا سَطِيحٌ فَمَا عِنْدَكَ فِي تَأْوِيلِهَا ؟ فَقَالَ أَخْلِفُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ حَدَشٍ لَتَهْبِطُنَ أَرْضُكُمْ الْحَبَشُ فَلْتَمْلِكُنَ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى جُرَشَ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ وَأَبْيَكُ يَا سَطِيحُ إِنَّ هَذَا لَنَا لَغَائِظٌ مُوجِعٌ فَمَتَى هُوَ كَائِنٌ ؟ أَفِي زَمَانِي هَذَا ، أَمْ بَعْدَهُ ؟ قَالَ لَا ، بَلْ بَعْدَهُ بِحِينَ أَكْثَرُ مِنْ سِتِينَ أَوْ سَبْعِينَ يَمْضِينَ مِنَ السِّنِينَ قَالَ أَفَيَدُومُ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِمْ أَمْ يَنْقَطِعُ ؟ قَالَ لَا ، بَلْ يَنْقَطِعُ لِبُضْعٍ وَسَبْعِينَ مِنَ السِّنِينَ ثُمَّ يُفْتَلُونَ وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا هَارِبِينَ قَالَ وَمَنْ يَلِي مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ ؟ قَالَ يَلِيهِ إِزْمُ (بَنُ) ذِي يَزَنَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَنَ ، فَلَا يَتْرُكُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ قَالَ أَفَيَدُومُ ذَلِكَ مِنْ سُلْطَانِهِ أَمْ يَنْقَطِعُ ؟ قَالَ لَا ، بَلْ يَنْقَطِعُ قَالَ وَمَنْ يَقْطَعُهُ ؟ قَالَ نَبِي زَكِي ، يَأْتِيهِ الْوُحْيُ مِنْ قِبَلِ الْعَلِيِّ قَالَ وَمِمَّنْ هَذَا النَّبِيُّ ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ ، يَكُونُ الْمَلِكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ؟ قَالَ وَهَلْ لِلدَّهْرِ مِنْ آخِرٍ ؟ قَالَ نَعَمْ يَوْمَ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ يَسْعُدُ فِيهِ الْمُحْسِنُونَ وَيَشْقَى فِيهِ الْمُسِيئُونَ قَالَ أَحَقَّ مَا تُخْبِرُنِي ؟ قَالَ نَعَمْ وَالشَّفَقُ وَالْغَسَقُ وَالْفَلَقُ إِذَا اتَّسَقَ إِنَّ مَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ لَحَقٌّ .

ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْهِ شِقٌّ ، فَقَالَ لَهُ كَقَوْلِهِ لِسَطِيحٍ وَكَتَمَهُ مَا قَالَ سَطِيحٌ لِيَنْظُرَ أَتَيْتَفَقَانِ أَمْ يَخْتَلِفَانِ فَقَالَ نَعَمْ رَأَيْتَ حُمَمَهُ خَرَجَتْ مِنْ ظُلْمِهِ ، فَوَقَعَتْ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَأَكَمَةٍ فَأَكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ نَسَمَةٍ . قَالَ فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ وَعَرَفَ أَنَّهُمَا قَدْ اتَّفَقَا وَأَنَّ قَوْلَهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ سَطِيحًا قَالَ " وَقَعَتْ بِأَرْضِ تَهَمِهِ فَأَكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ جُمُجُمَةٍ " وَقَالَ شِقٌّ : " وَقَعَتْ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَأَكَمَةٍ فَأَكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ نَسَمَةٍ " . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا أَخْطَأَتْ يَا شِقُّ مِنْهَا شَيْئًا ، فَمَا عِنْدَكَ فِي تَأْوِيلِهَا ؟ قَالَ أَخْلِفُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ لِيَنْزِلَنَّ أَرْضُكُمْ السُّودَانُ ، فَلْيَغْلِبَنَّ عَلَى كُلِّ طِفْلَةٍ الْبَنَانِ وَلْيَمْلِكُنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى نَجْرَانَ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ وَأَبْيَكُ يَا شِقُّ ، إِنَّ هَذَا لَنَا لَغَائِظٌ مُوجِعٌ فَمَتَى هُوَ كَائِنٌ ؟ أَفِي زَمَانِي ، أَمْ بَعْدَهُ ؟ قَالَ لَا ، بَلْ بَعْدَهُ بِزَمَانٍ ثُمَّ يَسْتَنْقِذُكُمْ مِنْهُمْ عَظِيمٌ دُو شَائِنٍ وَيَذِيْقُهُمْ أَشَدَّ الْهَوَانِ قَالَ وَمَنْ هَذَا الْعَظِيمُ الشَّانِ ؟ قَالَ غَلَامٌ لَيْسَ بِدَنِيٍّ وَلَا مَدَنٍ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْتِ ذِي يَزَنَ (فَلَا يَتْرُكُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ) ، قَالَ أَفَيَدُومُ سُلْطَانُهُ أَمْ يَنْقَطِعُ ؟ قَالَ بَلْ يَنْقَطِعُ بِرَسُولٍ مُرْسَلٍ يَأْتِي بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ بَيْنَ أَهْلِ الدِّينِ وَالْفَضْلِ يَكُونُ الْمَلِكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى يَوْمِ الْفَصْلِ قَالَ وَمَا يَوْمُ الْفَصْلِ ؟ قَالَ يَوْمٌ تُجْزَى فِيهِ الْوُلَاةُ وَيُدْعَى فِيهِ مِنَ السَّمَاءِ بِدَعَوَاتٍ يَسْمَعُ مِنْهَا الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ وَيُجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ لِلْمِيقَاتِ يَكُونُ فِيهِ لِمَنْ اتَّقَى الْقُوْرَ وَالْخَيْرَاتِ قَالَ أَحَقَّ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ إِي وَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ رَفْعٍ وَخَفْضٍ إِنَّ مَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ لَحَقٌّ مَا فِيهِ أَمْضٍ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : أَمْضٍ يَعْنِي شَكَا ، هَذَا بِلُغَةِ حَمِيرٍ ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو : أَمْضٍ أَيُّ بَاطِلٌ .

3. أنواع القصة في الأدب العربي القديم:

يختلف تصنيف القصة وبيان أنواعها باختلاف المقياس الذي بني عليه، فإذا نظرنا إلى القصة من حيث مصدرها وجدناها تنقسم إلى الأنواع الآتية:

أ- القصص الواقعية: ويندرج تحتها كثير مما روي من الوقائع والأحداث عن أيام العرب وأخبار فرسانها وأجوادها وعشاقها.

ب- القصص الواقعية الخيالية: وهي القصص ذات الأصل الواقعي، ولكن الخيال دخلها وأضاف إليها من الأحداث والشخصيات المتخيلة. ويدخل في هذا النوع سير عنترة والظاهر بيبرس¹، وسيرة سيف بن ذي يزن² وما أشبهها.

ت- القصص الخيالية: وهي القصص التي لم تحدث في الواقع، بل هي من نسج خيال الكاتب ومن هذا النوع رسالة الغفران لأبي العلاء المعري³ ورسالة التوابع والزوابع لأبن شهيد الأندلسي¹، وكتاب كليله ودمنة لابن المقفع وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عربشاه.

¹ - الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلاني البُندُقداري الصالحي النجفي لقب بأبي الفتوح. سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكاً يباع في أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر أحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. ولد بيبرس نحو عام 625 هـ الموافق 1228، حقق خلال حياته العديد من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة 1250 ومعركة عين جالوت انتهاءً بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة 1277 وقد قضى أثناء حكمه على الحشاشين واستولى أيضاً على إمارة أنطاكية الصليبية. حكم بيبرس مصر بعد رجوعه من معركة عين جالوت واغتيال السلطان سيف الدين قطز من سنة 1260، وتوفي يوم الخميس 27 محرم 676 هـ / 2 مايو 1277 م (عمر 54 سنة) بعد رجوعه من معركة الأبلستين ضد خانات المغول سنة 1277. أحيا خلال حكمه الخلافة العباسية في القاهرة بعد ما قضى عليها المغول في بغداد، وأنشأ نظماً إدارية جديدة في الدولة. اشتهر بيبرس بذكائه العسكري والدبلوماسي، وكان له دور كبير في تغيير الخريطة السياسية والعسكرية في منطقة البحر المتوسط.

² - سيف بن ذي يزن: ملك يمني حميري عاش في الفترة بين 574 – 516، اشتهر بطرد الأحباش من اليمن، تناولت سيرته القصص الشعبية العربية. وتحدثت عنه في إطار بطولي، واحتفلت المخيلة الشعبية به، لما كان له من شأن عظيم في التاريخ القومي العربي، إذ يعود إليه الفضل في طرد الأحباش من جزيرة بلاد العرب، بعد أن ظلوا غالبين عليه منذ عهد ذي نواس. وتذهب بعض الروايات إلى أن سيف بن ذي يزن غلب على الأحباش بمساعدة الملك الفارسي كسرى أنوشروان، وأطاح بحكمهم على اليمن، وبسط سلطانه على أرض أجداده في ظل الحماية الفارسية. ويرجح الباحثون أن انتصاره هذا يمكن أن يرجع إلى عام 570 أو نحوها.

³ - رسالة الغفران: عمل أدبي من أهم أعمال الشاعر والفيلسوف العباسي أبي العلاء المعري، كتبها في القرن الحادي عشر الميلادي، وهي ردّ على رسالة وردته من ابن القارح، وقسم الرسالة إلى قسمين: رواية الغفران والرد على ابن القارح، وقد جعل الرواية في ستة فصول، وفيما يأتي تلخيص رواية الغفران.

ابن القارح في الجنة: يشير أبو العلاء المعري في بداية الرواية إلى الرسالة التي وردته من ابن القارح، وقد أحدثت في نفسه أثراً جميلاً، وذكر أنه سيكون لصاحبها أجر كبير عند الله تعالى، ثم انتقلت الرواية بابن القارح إلى الجنة الذي ذكرت الرواية أنه استحق دخولها لكلماته الطيبة التي كان أصلها ثابت وفروعها في السماء، وبدأت تصف أحوال ابن القارح في الجنة وتصف نعيم الجنة، فتحدثت عن أشجار الجنة العظيمة وأنهارها التي يغذيها نهر الكوثر، وأنهار اللبن والرحيق المختوم.

يتنقل ابن القارح بعد ذلك وهو بطل الرواية في الجنة، ليلتقي الشعراء والفلاسفة والأدباء ويتحاور معهم، ويظهر أبو العلاء مقدرة اللغوية وخبرته في الشعر واللغة والأدب. ثم تذكر الرواية بيتين من الشعر للنمر بن تولب وقصة خلف الأحمر كيف يغير في قافية البيت الأول ثم الثاني، وتتابع الرواية وصف الجنة والاستشهاد بالآيات القرآنية وأقوال الشعراء وقصصهم، وتُشير إلى الشعراء والأدباء والنحويين/.....

...../..... الذي يجدهم ابن القارح في الجنة وقد غفر الله تعالى لهم ودخلوا الجنة، ويذكر منهم: المتنبى، محمد بن الحسن الدوسي، يونس بن حبيب الضبي، الكسائي وغيرهم كثير، وتذكر الرواية الحوارات والأحاديث التي تدور فيما بينهم وهم ينشدون بعضهم الشعر في العالم الآخر، ويلتقي ابن القارح بعدد كبير من الشعراء ويسألهم بماذا غفر الله لهم، منهم: الأعشى وزهير بن أبي سلمى وعبيد بن الأبرص ويروي أشعارهم. موقف الحشر: ينتقل بعد ذلك ابن القارح إلى موقف الحشر، حيث ينتفض من قبره ليجد نفسه في الساحات يوم القيامة، ويتذكر عند ذلك أنَّ حسناته قليلة وقد لا تنفعه توبته بعدها، فقرَّر أن يقول شعراً في رضوان خازن الجنة ليرأف بحاله على وزن: قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان، لكنَّه لم يأبه له لأنَّه لا يعرف الشعر، ثمَّ رفض أن يدخله الجنة دون إذن من رب العالمين، ثمَّ أخبره رضوان أنَّ الشعر علمه إبليس للعرب. في ذلك الموقف يرى ابن القارح كثيراً من الخلق منهم: حمزة بن عبد المطلب وشهداء أحد وفاطمة الزهراء وآل النبي جميعهم وغيرهم كثير، ثمَّ يصل إلى النبي محمد فيشفع له ويسمح له بدخول الجنة، وبعد موقف يحدث له مع رضوان خازن النار، يدخل الجنة بعد ستة أشهر من وقوفه في موقف الحشر.

ذكر الجنة مرة أخرى: بعد موقف الحشر يجد ابن القارح نفسه في الجنة مرة أخرى، ويلتقي بالراعي النميري ويتحدَّث إليه، ثمَّ بحميد بن ثور ويقرآن الشعر ثمَّ يلتقيان لبید بن ربیعة فيدعوهما إلى منزله ليتسامروا هناك، ثمَّ يلتقي بأشخاص كثر مثل إسحاق الموصلي ووالده والخليل الفراهيدي وغيرهم ويستفسر منهم عن الأشعار التي كانوا يقولونها في الدنيا، ثمَّ تمرُّ أمامهم طواويس الجنة وغيرها من المخلوقات التي أبدعها الله تعالى، فيتنبى البعض أن ينالها مشوية، فتصبح أمامه فوراً وبعد أن ينتهي من تناول الطعام تعود كما كانت بإذن الله، ويذكر غير ذلك من قصص الجنة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ابن القارح في جنة العفاريث: ينتقل ابن القارح بعد ذلك إلى جنة العفاريث، فيلتقي بالجنِّ المؤمنين، ويأخذ أخبارهم ويتعرَّف إلى أشعارهم، ويخبره شيخ منهن أنَّ عند الجنِّ آلاف الأوزان لكتابة الشعر، ويخبره ابن القارح أنَّه كان يكتب الشعر ليتقرب به إلى الملوك والأمراء، ثمَّ يتبادلان قراءة الشعر ويكثران منه، يتحدَّث ابن القارح بعد ذلك إلى حيوانات الجنة، ثمَّ يلتقي بالحطيئة وحاله في الجنة ليس مثل بقية أهلها، فيخبره أنَّه نال الشفاعة بصدقه عندما هجا نفسه، ثمَّ يلتقي بالخنساء وغيرها من الذين نالهم الشفاعة ودخلوا الجنة بعمل في الدنيا.

الذهاب إلى الجحيم: بعد رحلة طويلة في الجنة يزور ابن القارح الجحيم ليتعرف على من دخلها من أهل الدنيا من الشعراء والأدباء والفلاسفة، فيلتقي بإبليس ويتحدث إليه حديثاً مطولاً ويخبره عن قصة بشار بن برد حين مدحه في أشعاره، وهناك يرى عدد كبير من الشعراء الذين دخلوا النار معظمهم من الجاهلية ومنهم: امرؤ القيس، عمرو بن كلثوم، الشنفرى، تأبط شرّاً، عنتره العبسي، طرفة بن العبد، بشار بن برد، الأخطل وغيرهم، ويتعرف على سبب دخول كل واحد منهم إلى الجحيم.

العودة إلى الجنة: في نهاية المطاف يعود ابن القارح مرة أخرى إلى الجنة ويلتقي هناك بآدم أبي البشر ويسأله عن الشعر الذي كان ينسب إليه في الدنيا، ثمَّ يصل إلى مكان به أفعى كبيرة عالمة بالقراءات فيطمئن إلى الإقامة عندها ثمَّ لا يلبث أن يهرب منها مهرولاً في أنحاء الجنة، فيلتقي بالمزيد من أهلها مثل: العجاج، أغلب بني عجل، رؤبة، حميد الأرقط، ويدور بينه وبين رؤبة شجار، وأخيراً ينتهي من لقاءاته تلك ليصل إلى نعيم الفردوس الذي أعدَّه الله تعالى.

¹ - رسالة التوايع والزوايع: كتاب لأبي عامر أحمد بن عبد الملك القرطبي الملقب بابن شهيد الأندلسي، وهي قصة خيالية تحكي رحلة في عالم الجن يلتقي البطل خلالها بشياطين ألكتاب والشعراء، فيحاورهم ويحاورونه، والتابع الجن والزوبعة الشيطان، وسماها هكذا؛ لأنه يذكر في مطلعها أن شيطاناً تراءى له، وهو ينظم شعراً فأجازه، وبعد تعارفهما، حمله الشيطان إلى وادي الجن، نزولا عند طلبه، حيث التقى بكثير من شياطين الشعراء، كما التقى بطائفة من شياطين كتاب.

إضافة إلى ما تتضمنه رسالة ابن شهيد من فكاهة وتندر بخصوصه في قرطبة، وما تثيره من تخيلات في أرض الجن، فهي تعرض أبيات شعرية يعتبرها خير ما يقدم من الشعر، في مقابل شعر أهل المشرق. وتحمل رسالة ابن شهيد سمتين من سمات المقامة: السجع، ووجود رفيق للمؤلف وهو الجني، وقد استلهمها من المقامة الإبليلية لبديع الزمان. وتتميز أسلوبه فيها بسلاسة اللغة وابتعادها عن التكلف والصنعة، فهو يزاوج تارة، ويسجع أخرى، ويسترسل ثالثة؛ كما ضمنها روح الفكاهة والإضحاك، وفي الفصل الأول تبدو رحلة البطل مرتبة تاريخياً في لقائه بتوايع الشعراء، ابتداء من العصر الجاهلي والأموي والعباسي؛ فهو يحاور عدداً من توايع الفحول، كامرئ القيس، وطرفة ابن العبد، وأبي تمام، والبحترى، وأبي نواس، والمتنبى. أما في الفصل الثاني فهو يرى أن للكُتَّاب شياطيناً كما للشعراء شياطين. ويبدأ بالجاحظ، ثم عبد الحميد الكاتب وبديع الزمان، ويحاورهم في مسائل تتعلق بالسجع وبالمزاوجة، وبالأساليب والبيان. وفي الفصل الثالث يعالج ابن شهيد جملة من المسائل النقدية/.....

وإذا نظرنا إلى مضمون القصص وجدنا بين أيدينا الأنواع الآتية:

أ- القصص الإخبارية: وهي تلك الحكايات القصيرة والنوادر والأخبار والأحاديث التي وردت في كتب الأدب، جمالها في مضمونها، وأدبها في رشاقة أسلوبها وصفاء لغتها. ومن أولئك الذين حاولوا جمع هذا اللون من القصص التنوخي في كتابه الموسوم "الفرج بعد الشدة" وهو في خمس مجلدات، ومثله كتاب ابن عاصم الغرناطي الموسوم "جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى"، كما جمع علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ومحمد أحمد جاد المولى ألوانا من قصص العرب في مجلدات ثلاثة سموها "قصص العرب"

ب- قصص البطولة: وهي القصص التي تدور حول بطل من أبطال العرب، وتصنف أيامهم ووقائعهم المشهورة، ويقوم هذا اللون على تمجيد البطولة، والتغني بذكر الوقائع، وصفات الرجولة، ومن هذا القصص: قصة البراق¹، وسيف بن ذي يزن، وسيرة بني هلال، وسيرة عنترة.

...../..... وفي الفصل الأخير يرتحل ابن شهيد رفقة تابعه إلى أرض تعيش بها حيوانات من الجن، وهناك يحكم في قصيدتين غزلتين لبغل محب وحمار عاشق، وينتهي الكتاب بحوار ابن الشهيد مع إوزة أدبية ناظرته في النحو وغريب اللغة. وآراء ابن شهيد حول الشعراء والكتاب لا تخلو من الصحة، رغم ما مسها من حقد وضغينة اتجاه معاصريه، وقد ذهب فيها مذهبين: إذ أن هناك آراء تتعلق بالآثار الأدبية للكتاب أو الشاعر، وآراء أخرى تمس شخصية الأديب، أي مواهبه العقلية وملكاته الفطرية، وسعة مداركه، ولابن شهيد السبق في هذا الجانب إذ حاول استخدام العلم والفلسفة لدراسة شخصية الأديب وفهم ملكاته الأدبية، وطبعه، والذي يعتبره ابن شهيد أهم ركن في شخصية الأديب وسر بلاغته.

¹ - قصة البراق وليلى العفيفة: وأما البراق بن روحان، فهو من قبائل ربيعة الدهماء، من نسل عدنان وابنة عمه ليلى العفيفة، كان من أشجع شجعان قبائل ربيعة إلى درجة أن العرب تكتب في التاريخ أن إليه ينتهي مجد ربيعة. في ذلك الوقت كان هناك في الجزيرة العربية مفهوم السيادة المفروضة من القبائل اليمنية كهمدان وكافة القبائل السبئية على القبائل العدنانية، فكانت الأخيرة تدفع الجزية للقبائل اليمنية، بمعنى أن العرب العاربة كانوا يفرضون سيطرتهم على العرب المستعربة أي العدنانيين.

في يوم من الأيام اجتمعت القبائل العدنانية كمضر وإباد ونزار تحت راية ربيعة ابن الحارث والد الزير سالم و كليب، وقررت وضع حد لتجبر القبائل اليمنية عليها، فدارت بينهم معركة السلان، وفي هذه المعركة اشتهر البراق ابن روحان بأنه الفارس الأول بين قبائل العرب، وأصبحت سيادة القبائل العربية لربيعة وفارسها الأول البراق.

كان للبراق ابنة عم اسمها ليلى، وكانا يحبان بعضهما، وفي يوم من الأيام جاء البراق إلى عمه وخطبها منه فقال له: وأين نجد مثلك زوجا لها فأنت أحق الناس بها وهي لك.

وكان عم البراق تاجرا واسمه اللكيز، وكان صديقا لملوك اليمن ويذهب إليهم بقوافله التجارية كل عام، ذات يوم قال ملك اليمن له: يا لكيز سمعنا ان لديك ابنة اسمها ليلى، تامة الحسن وكاملة الجمال. فقال له لكيز: صدقت فلي ابنة اسمها ليلى وهي كما وصفت، فقال له ملك اليمن: أنا أريدها زوجة لإبني، فنجعل من صداقتنا نسبا بيني وبينك، فلم يستطع لكيز رفض نسب الملك وخجل من أن يقول له بأنه أعطى كلمة لابن أخيه البراق، وأمام إلحاح الملك وافق.

رجع لكيز إلى نجد وقابل ابن أخيه البراق وقال له ما جرى بينه وبين الملك، حاول البراق أن يثني عمه عن قراره لكنه رفض. فخرج البراق غاضبا وهو في الطريق قابل ابنة عمه ليلى، فقال لها: هل أنت راضية عن قرار والدك؟ قالت له: لست براضية لكنه قرار أبي وليس باليد حيلة. فقال البراق اسمعي يا ليلى، في الليل خذي حوائجك وانتظريني عند البئر لآتي وأخذك وأهرب بك من القبيلة، ولن يلحق بنا أحد من العرب فجميعهم يخشونني. رفضت ليلى وقالت له: ما قاله أبي الذي هو عمك سيمشي علي وعليك يا براق، وإذا كنت تحبني حقا فتمنى لي السعادة مع من كنت وأينما كنت، فلن أهرب معك وأفضح أبي بين العرب. غضب البراق وكره قبيلته واعتزل العرب جميعا.

خرج إلى الجبال وهام على وجهه وعتب على قبيلته التي لم تثنى عمه عن قراره، وحز في نفسه أن القبيلة تحتاجه فقط في الحرب. وهو في عزلته بدأت معارك بين قبيلته ربيعة وبين قبائل طي وقضاعة، فكانت الغلبة في المعارك لقبائل طي وقضاعة واستنزفوا قبيلة ربيعة لأنهم/.....

ت- القصص الدينية: يدخل في هذا النوع كل ما اتصل بالأنبياء والصالحين من الحكايات والأخبار، ولا يخفى أن في القرآن الكريم قصصا أخذ حيزا كبيرا، شمل الأنبياء وأقوامهم الصالحين وبعض أخبارهم، وقد عرف في تاريخنا لون من القصص عرف بقصص الأنبياء، ومنه قصص الأنبياء المسمى "العرائس" لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي.

ث- القصص الفلسفية: وهو لون من ألوان الكتابة الفلسفية بأسلوب قصصي، ومن أبرز ما يمثل هذا اللون رسالة حي بن يقظان لابن طفيل.

ج- القصص اللغوية: ويمثل هذا اللون المقامات التي هي قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها، ومن بين أهم مقاصدها المقصد اللغوي المتمحور أساسا حول إظهار البراعة اللغوية والتبحر في أساليب العربية.

خصائص الفن القصصي في الأدب العربي القديم:

1. تنوع مصادر القصة: من القصص ما هو عربي صميم، ومنها ما هو مترجم، وبعض المترجم أصابه التغير الذي يجعله مقبولا في التراث العربي ولا يصادم ثوابته.

2. تنوع القصص في طولها وقصرها: من القصص ما هو خبر قصير محدود الحجم، والأشخاص والأحداث. وهو إلى التاريخ أقرب منه إلى العمل الفني، ومنها ما هو فوق ذلك طولا وفنا.

3. تنوع الأسلوب الأدبي: من القصص ما جاء مرسلا من قيود الصنعة والتأنق الأسلوب، ونجد هذا في القصص الإخبارية. ومنها ما أثقله البديع بقيوده، ومنها ما اقترب من العامية، كما هو واضح من أسلوب ألف ليلة وليلة، والسير الشعبية.

4. تنوع الغاية: تنوعت غايات رواة القصص ومنشئها، فمن القصص ما هو ذو غاية تربوية، يروى أو ينشأ لما يحمله من الموعظة والعبرة، ومنها ما هو ذو هدف تعليمي يراد منه زيادة المعلومات وإفادة القارئ علما جديدا، ومنها ما يهدف إلى

...../..... أكثر منهم عددا، والبراق لم يتحرك لنجدة إخوانه رغم أنه كان يسمع أن قبيلته وأبناء عمه يقتلون يوما بعد الآخر، فتعبت قبيلة ربيعة وزاد فيها عدد القتلى ولم تستطع التحمل أكثر، فقرروا الإرسال في طلب البراق لنجدتهم فطردهم ورفض العودة معهم. كتبت قبائل طي وقضاعة إلى البراق رسالة يشكرونه فيها لعدم تدخله في الحرب ووعدوه بأن يرسلوا له الهدايا ثمنا لموقفه المحايد، لكن البراق فهم الرسالة بطريقة أخرى، أي أنهم يشكرونه لأنه تخلى عن أهله وسيدفعون له مالا ثمنا لذلك، فركب البراق فرسه الشؤبوب وعاد إلى قبيلته ليقود الحرب بنفسه، فاصطف الجيشان وصاح فرسان ربيعة وهم يرددون: براق سيدنا و قائد خيلنا. بدأت المعركة وبحث البراق عن زعيم قبيلة طي واسمه النصير الذي كتب له الرسالة، و قال له أتقدم لي الهديا لكي أتخلى عن أبناء عمي ؟ سأقطع رأسك وأقدمه هدية لهم. وبالفعل قدم البراق رأس النصير زعيم أعدائهم هدية لكليب. كُسر طي بعد مقتل قائدهم النصير وفرت قضاعة وغنمت ربيعة منهم غنائم كثيرة. ورجع البراق مع قبيلته و عينوه زعيما لهم، وليلى التي أحبا كانت قد أرسلت لملك اليمن، لكن تم اختطافها في طريقها إلى هناك من طرف فرسان من قبيلة إباد من عدنان، وأهدوها جارية لأحد أبناء الأكاسرة ملوك فارس. فأحبها ابن كسرى لشدة جمالها وأغراها بالزواج وحين رفضت عذبتها عذابا شديدا وهي مستمرة في رفضه.

في ذلك الوقت لم تكن قبيلة ربيعة تدري أن ليلي مخطوفة، بل الجميع اعتقد أنها في اليمن، وملك اليمن كان يعتقد أنها لا زالت في قبيلة أهلها، فكل طرف كان يعتقد أنها عند الآخر، فحدث ذات يوم أنها صادفت راعي على أطراف القصر الذي كانت أسيرة فيه في أرض الفرس، فسألته هل أنت عربي ؟ فأجابها نعم أنا عربي ... فقالت له هل تعرف البراق ابن روحان ؟ قال لها ومن لا يعرف أشهر فارس من فرسان العرب. !...../.....

التسلية والترفيه؛ ولكن علينا أن نشير إلى أن هذه الغايات قد تتداخل ويظهر بعضها دون بعض، فيجتمع الهدف التعليمي مع التسلية، أو الهدف الأخلاقي والتعليمي وغيرها.

...../..... فقالت له سأقول لك قصيدة وانقلها إليه، فأنشدت ليلى على مسامع الراعي قصيدة تستنجد بها بنخوة البراق وكافة فرسان العرب ، فنقل عنها الراعي القصيدة. وعندما وصل الراعي إلى قبيلة ربيعة وألقى عليهم القصيدة لم ينتظر الفرسان انتهاء القصيدة حتى ركبوا خيولهم وركضوا مسرعين إلى بلاد فارس. ولحقت بهم قبائل مضر من تميم وهوازن وغطفان وعبس، فقاد البراق فرسان القبائل العربية حتى دخل إلى أرض فارس وبدأت المعارك الطاحنة مع أبناء الأكاسرة.

طحن البراق جيش الفرس وكسر جنودهم واقتحم أسوارهم وحرر ليلى منهم بالقوة، وعاد منتصرا محررا، وعندما وصل إلى القبيلة زوجته ليلى العفيفة التي رفضت أن تهرب معه حفاظا على شرف أبيها، فذهب إلى بلاد فارس وجلبها عروسة له على جماجم الفرس. ومن هذه الحادثة سمت العرب ليلى بليلى العفيفة.